يحيى بن أكثم

أعـــلام القضـــاء

يحيى بن أكثم - رحمه الله -

يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسيدي المروزي، أبو محمد: قاضي، رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب. ولد بمرو، واتصل بالمأمون أيام مقامه بها، فولاه قضاء البصرة (سنة ٢٠٢) ثم قضاء القضاة ببغداد. وأضاف إليه تدبير مملكته، فكان وزراء الدولة لا يقدمون ولا يؤخرون في شيء إلا بعد عرضه عليه. وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه عنده أحد. وكان مع تقدمه في الفقه وأدب القضاء، حسن العشرة، حلو الحديث، استولى على قلب المأمون حتى أمر بأن لا يحجب عنه ليلا ولا نهارا. وله غزوات وغارات، منها أن المأمون وجهه سنة ٢١٦هـ إلى بعض جهات الروم، فعاد ظافرا. ولما مات المأمون وولي المعتصم، عزله عن القضاء، فلزم بيته. وآل الأمر إلى المتوكل فرده إلى عمله. ثم عزله سنة ٢٤٠ هـ وأخذ أمواله، فأقام قليلا، وعزم على المجاورة بمكة، فرحل إليها، فبلغه أن المتوكل صفا عليه، فانقلب راجعا، فلما كان بالربذة (من قرى المدينة) مرض وتوفي فيها. قال ابن خلكان: وكانت كتب يحيى في الفقه أجل كتب، فتركها الناس لطولها، وله كتب في " الأصول " وكتاب أورده على العراقيين سماه " التنبيه " وبينه وبين داود بن علي مناظرات. وكان يتهم بأمور شاعت عنه وتناقلها الناس في أيامه وتداولها الشعراء، فَذكَر شئ منها للإمام أحمد بن حنبل، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟ وأنكر ذلك إنكارا شديدا، وأشار إلى حسد الناس له.

سمع الحديث من: عبد العزيز بن أبي حازم، وابن المبارك،

وعبد العزيز الدراوردي، وجرير بن عبد الحميد، وسفيان بن عيينة، والفضل السيناني، وعبد الله بن إدريس، وعدة. وله رحلة ومعرفة.

وحدث عنه: الترمذي:، وأبو حاتم، والبخاري خارج " صحيحه "، وإسماعيل القاضي، وإبراهيم بن محمد بن متويه، وأبو العباس السراج، وعبد الله بن محمود المروزي، وآخرون.

وقد أثنى عليه أئمة العلوم في عصره فقد قال الحاكم: من نظر في " التنبيه " له، عرف تقدمه في العلوم.

وقال طلحة الشاهد كان واسع العلم بالفقه، كثير الأدب، حسن العارضة، قائما بكل معضلة. غلب على المأمون، حتى لم يتقدمه عنده أحد مع براعة المأمون في العلم. وكانت الوزراء لا تبرم شيئا حتى تراجع يحيى.

وقال عبد الله بن أحمد: سمع من ابن المبارك صغيرا فصنع أبوه طعاما، ودعا الناس، وقال: اشهدوا أن ابني سمع من عبد الله.

وقد ولي يحيى بن أكثم قضاء البصرة وله عشرون سنة، فاستصغره أهل البصرة، فقالوا: كم سن القاضي فعلم أنه استصغر، فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به النبي ﷺ قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي ﷺ قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر بن الخطاب ﷺ قاضياً على أهل البصرة، فجعل جوابه احتجاجاً.

وكان رسول الله ﷺ قد ولى عتاب بن أسيد مكة بعد فتحها وله إحدى وعشرون سنة، وقيل ثلاث وعشرون، وكان إسلامه يوم فتح مكة، وقال لرسول الله ﷺ: أصحبك وأكون معك، فقال:«أو ما ترضى أن أستعملك على آل الله تعالى» فلم يزل عليهم حتى قبض

رسول الله ﷺ.

وكان يحيى بن أكثم من أئمة العلم، أحد أعلام الدنيا، وقد اشتهر فضله وعلمه ورئاسته وسياسته، وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً. وكان المأمون ممن برع في العلم، فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة، وتدبير أهل مملكته، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم. ولا نعلم أحداً غلب على سلطانه في زمانه إلا يحيى بن أكثم وابن أبي داود.

وقد ولي قضاء البصرة منذ خلافة المأمون وحظي عنده وكانت له مكانة كبيرة في الدولة وظلت مكانته في علو وارتفاع في عهد من تلاه من خلفاء المعتصم والواثق حتى ولي الخليفة المتوكل أمور الدولة العباسية فخلع من القضاء مع من خلع من أركان الدولة العباسية وأودع داره.

ومن مواقفه المحمودة وقوفه في وجه الخليفة المأمون بعدما أباح متعة النساء فقد قال الصولي: سمعت إسماعيل القاضي يعظم شأن يحيى بن أكثم، وذكر له يوم قيامه في وجه المأمون، لما أباح متعة النساء، فما زال به حتى رده إلى الحق، ونص له الحديث في تحريمها، فقيل لإسماعيل: فما كان يقال؟ قال: معاذ الله أن تزول عدالة مثله بكذب باغ أو حاسد. ثم قال: وكانت كتبه في الفقه أجل كتب، تركها الناس لطولها.

و سئل رجل من البلغاء عن يحيى بن أكثم، وأحمد بن أبي دواد: أيهما أنبل؟ قال: كان أحمد يجد مع جاريته وبيته، وكان يحيى يهزل مع عدوه وخصمه.

قال أبو حاتم الرازي عنه: فيه نظر.

وقال جعفر بن أبي عثمان، عن ابن معين: كان يكذب.

وقال ابن راهويه: ذاك الدجال يحدث عن ابن المبارك.

وقال علي بن الجنيد: يسرق الحديث.

وقال صالح جزرة: حدث عن ابن إدريس بأحاديث لم يسمعها.

وقال أبو الفتح الأزدي: روى عن الثقات عجائب.

وقد رد الذهبي عنه فيما اتهم به فقال: ما هو ممن يكذب، كلا وكان عبثه بالمرد أيام الشيبة، فلما شاخ أقبل على شأنه، وبقيت الشناعة، وكان أعور[1].

مات بالربذة منصرفه من الحج يوم الجمعة في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين.

قال ابن أخته: بلغ ثلاثا وثمانين سنة.

وحدث أن كتب المتوكل إِلَى أَحْمَد بْن حنبل، يسأله عَن رجلين، أحدهما يحيى بْن أكثم، فكتب إليه:

أما فلان فلا ولا كرامة، وأما يحيى بْن أكثم فقد ولى القضاء، فما طعن عليه فيه. وكان على البصرة حين قدمها يحيى مُحَمَّد بْن حرب بْن قطر بْن قبيصة بْن المخارق الهلالي، خليفة لصالح بْن الرشيد، فاستعمل مُحَمَّد بْن حرب بْن علي أحكام الجامع عَبْد اللهِ بْن عَبْد اللهِ ابْن أسد الكلابي، فكان يحكم في الشيء من الديون، ويفرض للمرأة على زوجها، وما صغر قدره من الأحكام، فأرسل إليه يحيى بْن أكثم: لا تحكمن في أكثر من عشرين درهم فألزمك ذلك في مالك،

(١) سير أعلام النبلاء، ١٢ / ١٠.

فأرسل إليه عبيد الله يخبره: أنه لا يلتفت إِلَى ما أرسل إليه، فأمر يحيى بْن أكثم، من ينادي على رأسه في مقعده، فشد عَبْد اللهِ قمطره وأشرف إِلَى مُحَمَّد بْن حرب فأعلمه، فوجد مُحَمَّد بْن حرب جماعة من أعوانه، وأمرهم أن يأتوا بمن وجدوا من أمناء يحيى وذراعه، فانتهوا إِلَى المسجد الجامع، وقد قام يحيى فوجدوا الصلت بْن مسعود القيسي، وإسحاق بْن إسماعيل بْن حماد بْن زيد، فجاءوا بهم إِلَى أحمد بْن حرب، فحكوا عَن إسحاق بْن إسماعيل كلاماً فِيْهِ بعض الغلظة، ولم يحكوا عَن الآخرين شيئاً، فلما صاروا إِلَى مُحَمَّد سل الأعوان صلتاً نحو داره لجواره، وقدم الآخران فشتم إسحاق وأمر به فحبس حتى كلم فِيْهِ فأطلقه وقال: لم نجد ليحيى شكراً، وذلك أن أبا سلمة الداعية قدم قبل ذلك في أمر يحيى يطالبه وغيره من أهل البصرة بأموال ليحيى بْن خاقان، ادعى عليهم أنهم أودعوها، فحبسهم أَبُو سلمة ليطالبهم بذلك المال، وعلى البصرة يومئذ يحيى بْن عَبْد اللهِ، أخو دينار بْن عَبْد اللهِ، وقد كتب إليه يأمر بإنفاذ أمر أبي سلمة، فاستوحش الناس لما صنع أَبُو سلمة، وكاد أمر الصيارفة ينكشف، فكلم مُحَمَّد بْن حرب يحيى بْن عَبْد اللهِ وأَبُو سلمة حاضر، فقال: هَذَا الرجل قد مد يده إِلَى قاضي البلد ووجوه صيارفته، حتى أعطب أموال الناس، وودائعهم عند الصيارفة، وفي هَذَا فساد أموال الناس ويكشف أحوالهم، ولم يؤسر بهَذَا كله ولا يرضاه السلطان الذي فوقه، ونحو من هَذَا الكلام.

فَقَالَ: أَبُو سلمة ليحيى بْن عَبْد اللهِ: ألم آتك بكتاب السلطان يأمرك بإنفاذ أمري؟ قال: بلى، قال: فإني آمرك بحبس هَذَا فقد أتلف أموال السلطان، وزين لهؤلاء الخونة الخيانة، وكسر ما في أيديهم، فراجعه يحيى بْن عَبْد اللهِ وقال: إن مثل هَذَا لا يحبس، وقدره يرتفع عما

أمرت به فيه، قال: أنت أعلم فاكتب بهَذَا، فأقبل يحيى على ابن حرب، فقال: يا أبا قبيصة أحب أن تتحول من مقعدك هَذَا إِلَى غيره، فقام فتحول، فأقبل يحيى بْن عَبْد اللهِ ومن يحضره، فيهم مُحَمَّد بْن عَبْد اللهِ العتبي، وغيره من وجوه البصرة، وقد كانوا تواطئوا قبل ذلك على الكلام مع ابن حرب، ثم حبسوا، فأقبلوا على أبي سلمة فقالوا: إن الذي أمرت به من حبس هَذَا الرجل أعظم مما يذهب إليه، إن حبسه لا يسوغ لك، ولا يؤمن أن ينبعث عليك منه ما تكره؛ فلم يزالوا يجيبونه ويهشونه حتى أقلع عَن رأيه؛ وانصرف مُحَمَّد بْن حرب إِلَى منزله؛ وكان من أشد الناس إقبالاً على أبي سلمة ونصرة ليحيى بْن أكثم، فلم ير جعفر بْن سليمان، قَالَ: قطّ: فكان يحيى بْن أكثم يسألني الثبوت عنده؛ وكان أَبو سلمة توعده وكان يعلم مكانتي من الْحَسَن بْن سهل، وكان لي هاشاً مطيعاً قائماً؛ قَالَ: ابن حرب:

لم نجد ليحيى شكراً، يعني أنه جادل عنه أبا سلمة حين أمر بحبسه.وكان يحيى بْن أكثم يرمي بأمر غليظ في غير باب الحكم، فأما في الحكم فهيهات أن يرام[1].

وكان يحيى كثير المزاح لا يدع الهزل في مجلسه له طرائف في الهزل؛ فأنشدت لعمارة بْن عقيل في يحيى بْن أكثم:

إذا كنت ترجو در مولى كلالة ::: له ثروة المال والمنزل الضخم
فلا ترج دار الأكثمي فإنه ::: كثير العقود لا عظام ولا لحم
وخروعة الوادي يطول فجاءة ::: وليس لها عود صليب ولا طعم

وجاء أعرابي من بني تميم إِلَى يحيى بْن أكثم فمدحه فحرمه فقال:

(١) أخبار القضاة، ٢/ ١٦٢.

قل لابن أكثم يحيى خبت من رجل ::: يرى إلَى أقبح الأفعال منسوبا
فسقا وبخلاً وأخلاقاً مذممة ::: إن كنت في الجنب ركاباً ومركوبا
لا تفخرنّ فلولا عظم ما اجترحت ::: أيدي البرية ما أصبحت محجوبا
إني لراج سريعاً أن أراك به ::: في الدين والمال محزوناً ومسلوبا

فما مضى عليه شهر حتى أوقع به المتوكل [1].

قال إسماعيل بن إسحاق: كان يحيى بن أكثم يقول: أبرأ إلى الله عز وجل من أن يكون في شيء مما رميت به من أمر الغلمان. قال: ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف لله، ولكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق، فرمى بما رمي به.

وكان يحيى سليماً من البدعة ينتحل مذهب أهل السنة، بخلاف أحمد بن أبي داود، الذي عرف عنه تعصبه للمعتزلة، وكان يحيى يقول: القرآن كلام الله، فمن قال إنه مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه [2].

مواقف من حياته - رحمه الله -:

أعظم منك مصيبة

(١) أخبار القضاة، ٢/١٦٦.
(٢) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٨ / ١٨٧، التاريخ الكبير ٨ / ٢٦٣، أخبار القضاة لوكيع ٢ / ١٦١، الجرح والتعديل ٩ / ١٢٩، مروج الذهب للمسعودي ٤ / ٢١ وما بعدها، الأغاني ٢٠ / ٢٥٥، تاريخ بغداد ١٤ / ١٩١، ٢٠٤، طبقات الحنابلة ١ / ٤١٠، ٤١٣، الكامل لابن الأثير: أخباره متناثرة في الجزء السابع منه، وفيات الأعيان ٦ / ١٤٧، ١٦٥، تهذيب الكمال: ١٤٨٦، ١٤٨٨، تذهيب التهذيب ٤ / ١٤٧ / ٢، ١٤٩ / ١، ميزان الاعتدال ٤ / ٣٦١، ٣٦٢، العبر ١ / ٤٣٩، البداية والنهاية ١٠ / ٣١٩، تهذيب التهذيب ١١ / ١٧٩، ١٨٣، النجوم الزاهرة ٢ / ٣١٦، ٣١٧، حياة الحيوان للدميري ٢ / ٢، ٣، طبقات المفسرين ٢ / ٣٦٢، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٢١، مرآة الجنان ٢ / ١٣٥، شذرات الذهب ٢ / ٩١ و١٠١، ١٠٢، الجواهر المضية ٢ / ٢١٠.

قال أبو داود السنجي سمعت يحيى يقول: كنت عند سفيان، فقال: بليت بمجالستكم بعدما كنت أجالس من جالس الصحابة، فمن أعظم مني مصيبة؟ قلت: يا أبا محمد، الذين بقوا حتى جالسوك بعد الصحابة، أعظم منك مصيبة.

وفي رواية أخري عن يحيى، عن سفيان، قال: لو لم يكن من بليتي إلا أني حين كبرت صار جلسائي الصبيان، بعدما كنت أجالس من جالس الصحابة. قلت: أعظم منك مصيبة من جالسك في صغرك بعدما جالس من أصحاب رسول الله ﷺ.

قال: فسكت.

زاغ زاغ زاغ

قال محمد بن مسلم السعدي: وجه إلى يحيى بن أكثم يوماً فصرت إليه، فإذا عن يمينه قمطرٌ [1] مجلدة، فجلست فقال لي: افتح هذا القمطر، ففتحها فإذا شيءٌ قد خرج منها، رأسه رأس إنسانٍ، وهو من سرته إلى أسفل خلقة " زاغ " [2]، وفي ظهره وصدره سلعتان، فكبرت وهللت وفزعت، ويحيى يضحك، فقال لي بلسانٍ فصيح طلق ذلق:

أنا الزاغ أبو عجوه ::: أنا ابن الليث واللبوه
أحب الراح والريحا ::: ن والنشوة والقهوة
فلا عدوى يدي تخشى ::: ولا تحذر لي سطوه

(١) القمطر، والقمطرة: ما تصان فيه الكتب.

(٢) الزاغ: نوع من أنواع الغربان، يقال له: الزرعي، وغراب الزرع، وهو غراب أسود صغير، وقد يكون محمر المنقار والرجلين. ويقال له أيضا: غراب الزيتون، لأنه يأكله. وهو لطيف الشكل، حسن المنظر، صغير نحو الحمامة، برأسه غبرة وميل إلى البياض، ولا يأكل الجيف. وجمعه: زيغان.

ولي أشـــــياء تســـــتطرف ::: يـــوم العـــرس والـــدعوة
فمنـــها ســـلعةٌ في الظلـــه ::: ر لا تســـــترها الفـــــروة
وأمـــا الســـلعة الأخـــرى ::: فلـــو كـــان لهـــا عـــروة
لمـــا شـــك جميـــع النـــا ::: س فيهـــا أنهـــا ركـــوه

ثم قال: يا كهل! أنشدني شعراً غزلاً: فقال لي يحيى: قد أنشدك الزاغ فأنشده، فأنشدته:

أغـــرك أن أذنبـــت ثم تتابعـــت ::: ذنوبٌ فلـــم أهجـــرك ثم ذنـــوب
وأكثرت حتى قلت ليس بصارمي ::: وقد يصرم الإنسان وهو حبيـــب

فصاح: زاغ زاغ زاغ، ثم طار، ثم سقط في القمطر، فقلت ليحيى: أعز الله القاضي، وعاشقٌ أيضاً؟! فضحك، قلت: أيها القاضي: ماهذا؟ قال: هو ما تراه، أرسل به صاحب اليمن إلى أمير المؤمنين، وما رآه بعد وكتب كتاباً لم أفضضه، وأظن أنه ذكر في الكتاب شأنه وحاله.

فحجر القاضي عليهما

عن يحيى بن أكثم قال قدم رجل ابنه إلى بعض القضاة ليحجر عليه فقال: فيم؟ قال للقاضي: أصلحك الله إن كان يحسن آيتين من كتاب الله فلا تحجر عليه فقال القاضي اقرأ يا فتى فقال:

أضـــاعوني وأي فـــتى أضـــاعوا ::: ليـــوم كريهـــة وســـداد ثغـــر

فقال أبوه أصلحك الله إنه قرأ آية أخرى فلا تحجر عليه فحجر القاضي عليهما [1].

وأنت تأبى

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري - بيروت، ص ٧٥.

قال عبد الواحد بن محمد: وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن فقال له إن رأيت أعزك الله أن تذكر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل قال له لست أعزك الله بحاجبه قال فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلك ما سألت واعلم أن الله عز وجل جعل في كل شيء زكاة وجعل زكاة المال إغاثة ذا الحاجة وزكاة الجاه إغاثة الملهوف واعلم أن الله عز وجل مقبل عليك بالزيادة إن شكرت أو التغيير إن كفرت وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك لأني أدعوك إلى ازدياد نعمتك وأنت تأبى فقال له يحيى: أفعل وكرامة وخرج الإذن ليحيى فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي فأذن له [1].

ما نعيب شعرك إلا أنك لا تطيل

قال يحيى بن أكثم لمحمد بن حازم الباهلي ما نعيب شعرك إلا أنك لا تطيل فأنشأ يقول

أبى لِيَ أن أُطِيلَ الشعرَ قَصْدِي ::: إلى المَعْنَى وعِلْمِي بالصَّوابِ
وإيجازي بمُخْتَصَرٍ قريبٍ ::: حذفتُ به الفضولَ من الجَوابِ
فَأَبْعَثُهُنَّ أربعةً وَخَمْساً ::: مُثَقَّفَةً بألفاظٍ عِذابِ
خَوَالِدَ ما حدَا ليلٌ نَهاراً ::: وما حَسُنَ الصَّبَا بأخي الشَّبابِ
وهُنَّ إذا وَسَمْتُ بهنَّ قوماً ::: كأطواق الحمائم في الرِّقابِ
وهُنَّ إذا أقمتُ مساقراتٌ ::: تُهَادَتُهَا الرُّواةُ مع الرِّكابِ [2]

العشق ما هو؟

(١) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ١ / ٢٦٣.

(٢) أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣ / ١٢٩، ١٤ / ٩٩.

قال أبو العالية الشامي: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه، وتؤثرها نفسه، قال: فقال له ثمامة: اسكت يا يحيى، إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاقٍ، أو في محرمٍ صاد ظبياً أو قتل نملة، فأما هذه فمسائلنا نحن، فقال له المأمون: قل يا ثمامة، ما العشق؟ فقال ثمامة: العشق جليسٌ ممتع، وأليف مؤنس، وصاحبٌ ملك، مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواضرها، والعقول وآراءها، وأعطي عنان طاعتها، وقود تصرفها، توارى عن الأبصار مدخله، وعمي في القلوب مسلكه.

فقال له المأمون: أحسنت - والله - يا ثمامة، وأمر له بألف دينار.

رأيت من العجائب قاضيين

قال جعفر بن أحمد بن جعفر النهرواني: ولى يحيى بن أكثم إسماعيل بن سماعة القضاء بغربي بغداد، وولى سوار بن عبد الله شرقيها، وكانا أعورين، فكتب فيه محمد بن راشد الكاتب:

رأيت من العجائب قاضيين ::: هما احدوثة في الخافقين
هما قال الزمان بملك يحيى ::: إذ افتتح القضاء بأعورين
فلو جمع العمى يوماً بأفقٍ ::: لكانا للزمانة خلتين
تحسب منهما من هز رأساً ::: لينظر بزاله من فرد عين

وكان يحيى بن أكثم أعور.

كيف يفعل مع هذا الأنف؟

قال عبد الله بن محمود: رأيت قاضي القضاة يحيى بن أكثم بمكة

وقد وقف يلاحظ حجاماً عليه أنف كأنه أزجّ [1]، فقلت له: أيها القاضي! ما هذا الوقوف، فقال لي: ذرني فإني أريد أنظر إلى هذا كيف يستوي له مص المحجمة مع هذا الأنف؟ وقد كان رجلٌ جالسٌ بين يدي الحجام ففطن به الحجام، فقال له: مالك قائم تنظر إلي؟ ليس ونور الله أضرب في قفا هذا بمعولي وأنت واقف، فتوارينا عنه فإذا هو يعطف أنفه بيده اليسرى ويمسك المحجمة بيده اليمنى ويمص بفيه، فقال يحيى: أما هكذا فنعم، قال عبد الله: وكان يحيى بن أكثم أعور.

يحيى بن أكثم وقاعاً في الناس

قال علي بن يحيى: كان يحيى بن أكثم وقاعاً في الناس وكان شريراً، وكان يغري المأمون بالناس ويقع فيهم عنده، وكان يثني على عمرو بن مسعدة ويقرظه عنده، ولا يزال يذكر قراهته ونصيحته وحسن صناعته؛ فبلغ ذلك عمراً فدخل على المأمون فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن يحيى ابن أكثم يثني علي عندك، وأنا أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن تريه أنك قبلت شيئاً من قوله في، فإنه إنما قدم الثناء علي لوقيعةٍ يريد أن يوقعها بي لديك لتصدقه فيما يقول، قال: فضحك المأمون منه وقال: قد أمنت من ذلك فلا تخفه مني.

كيف يسمي يحيى بن أكثم الثقلاء؟

قال أبو العالية الشامي مؤدب ولد المأمون: قال المأمون ذات يوم ليحيى بن أكثم القاضي: أريد منك أن تسمي لي ثقلاء أهل عسكري وحاشيتي، فقال له: يا أمير المؤمنين اعفني فإني لست أذكر أحداً منهم وهم لي على ما تعلم، فكيف إن جرى مثل هذا؟ قال له: فإن

(١) الأزج هو الشيء المستطيل والمقوس.

كنت لا تفعل فاضطجع حتى أقتل لك مخراقاً [1]دبيقياً [2] وأضربك به وأسمي مع كل ضربة رجلاً، فإن كان ثقيلاً تأوهت، وإن يك غير ذلك سكت، فأكون أنا على معرفة منهم ويقين من ثقلائهم. فاضطجع له يحيى وقال: أرأيت قاضي قضاة وأميراً ووزيراً يعمل به مثل ذا؟ فلف له مخراقاً دبيقياً وضربه به ضربة وذكر له رجلاً ثقيلاً فصاح يحيى: آه آه يا أمير المؤمنين في المخراق آجرة، فضحك المأمون منه حتى كاد يغشى عليه وأعفاه من الباقين.

ابن أبي دواد عيناً على المعتصم

قال أبو العباس ابن الفرات: كنا ليلةً في دار أبي الصقر إسماعيل ابن بلبل فوافى يعقوب بن إسحاق الصائغ برسالةٍ من أبي القاسم عبيد الله بن سليمان في حاجةٍ له، فجلس معنا إلى أن يؤذن له على أبي الصقر، فجرى ذكر أحمد بن أبي دوادٍ فكل حدث عنه وعن أيامه بشيء. فحدثنا يعقوب بن الصائغ قال: لما وجه المأمون بأبي إسحاق المعتصم إلى مصر وعقد له من باب الأنبار إلى أقصى المغرب قال ليحيى ابن أكثم: ينبغي أن ترتاد لي رجلاً حصيفاً لبيباً له علم وأمانة وثقة أنفذه مع أبي إسحاق، وأوليه المظالم في أعماله، وأتقدم إليه سراً بمكاتبتي سراً بأخباره وما تجري عليه أموره، وبما يظهر ويبطن، وما يرى من أمر قواده وخاصته، وكيف تدبيره في الأموال وغيرها، فإني لست أثق بأحدٍ ممن يتولى البريد، وما أحب أن أجشمه بتقليد صاحب البريد عليه فيكون معتمدي عليه وتكون كتبه سرية إليك لتقرنني إياها إذا وردت، فقال: يا أمير المؤمنين عندي رجل من أصحابي أثق بعقله ودينه ورأيه وأمانته وصدقه

(١) المخراق: ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا.
(٢) نسبة إلى " دبيق " وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس، من أعمال مصر.

ونزاهته. فقال: جئني به في يوم كذا وكذا، فصار يحيى بن أكثم بأحمد بن أبي دوادٍ إلى المأمون في اليوم الذي حده له.

فكلمه المأمون فوجده فهماً راجحاً، فقال له: إني أريد إنفاذك مع أخي أبي إسحاق، وأريد أن تكتب بأخباره سراً، وتتفقد أحواله ومجاري أموره وتدبيراته وخبر خاصته وخلواته، وتنفذ كتبك بذلك إلى يحيى بن أكثم مع ثقاتك ومن تأمنه على دمك، فإني أشهر أمرك بتقليد المظالم في عسكره، وأتقدم إليه بمشورتك والأنس بك. فقال له أحمد: أبلغ لك يا أمير المؤمنين في ذلك فوق ما قدرته عندي وبي، وأنتهي إلى ما يرضي أمير المؤمنين ويزلف عنده. فجمع المأمون بين أحمد بن أبي دوادٍ وبين المعتصم وقال له: إنك تشخص في هذا العسكر وفيه أوباش الناس وجند وعجم وأخلاط من الرعية، ولا بد لعسكرك من صاحب مظالم يكون فيه لينظر في أمور الناس، وقد اخترت لك هذا الرجل فضمه إليك وأحسن صحبته وعشرته؛ فأخذه المعتصم معه، فلما بلغوا الأنبار وافت كتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الأنبار، فقال المأمون ليحيى: ترى ما كان من بغداد إلى الأنبار خبر يكتب به صاحبك إليك؟ قال فقال يحيى: لعله يا أمير المؤمنين لم يحدث خبر تحسن المكاتبة به؛ وكتب يحيى إلى أحمد يعنفه ويستبطئه ويخبره أن أمير المؤمنين قد أنكر تأخر كتابه. فلما ورد الكتاب على أحمد ووقف على ما فيه احتفظ به ولم يجب عنه؛ وشخص المعتصم حتى وافى الرحبة ولم يكتب أحمد بحرف واحدٍ من أخبار المعتصم التي تقدم إليه فيها. وكتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الرحبة وأخبار عسكره، فدعا المأمون يحيى بن أكثم فقال: يا أسخن الله عينك، عجبت أن تختار إلا من هذه سبيله، تختار لي

ويحك رجلاً تصفه بكل الصفات فأتقدم إليه بما كنت حاضره، فلا يكتب من بغداد إلى أن يوافى الرحبة إليك كتاباً في معنى ما اعتمد عليه فيه: ؟! قال: فكتب يحيى إلى أحمد كتاباً أغلظ له المخاطبة وأسمعه فيه المكروه ويقول له: إنما أشخصناك لما تقدمنا به إليك، وإنا إنما أظهرنا تقليدك المظالم ليتيسر ما أمرت به، فما هذه الغفلة وما هذا الجهل بما يراد منك؟ فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به، وسار المعتصم من الرحبة حتى وافى الرقة، فدعا المأمون بيحيى فقال له: يا سخين العين، هذا مقدار رأيك وعقلك؟ اللهم إلا أن تكون غررتني معتمداً، وأوطأتني العشوة قصداً أولا فتجيئني برجل تعلم موقعه عندك وتطلعني على الوقوف عليه فتصفه وتقرظه حتى أودعته سراً من أسراري وأمراً أقدمه على كل أموري، فمضى من مدينة السلام إلى ديار مصر فلم يكتب بحرفٍ مما أمر بالكتاب به؟! فقال: يا أمير المؤمنين من يعمل بغير ما يؤدي إلى محبتك ويقود إلى إرادتك فأذاقه الله بأسك، وألبسه نكالك، وصب عليه عذابك.

وكتب إلى أحمد كتاباً يشتمل على كل إيعاد وإرهابٍ وتخويف وتحذير، وخاطبه بأوحش مخاطبةٍ وأنكلها، فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب إلى أبي إسحاق المعتصم كتاباً يأمره فيه بالبعثة بأحمد بن أبي دواد مشدودةً يده إلى عنقه، مثقلاً بالحديد، محمولاً على غير وطاء. فورد الكتاب على المعتصم، ودخل أحمد بن أبي دواد إليه وهو بالرقة ما جاوزها، فرأى المعتصم كئيباً مغموماً، فقال: أيها الأمير أراك متغيراً وأرى لونك حائلاً، فقال: نعم لكتابٍ ورد علي من أجلك، ونبذ إليه بالكتاب فقرأه أحمد، فقال له المعتصم: تعرف لك ذنباً يوجب ما كتب به أمير

المؤمنين؟ قال: ما اجترمت ذنباً، إلا أن أمير المؤمنين لا يستحل هذا مني إلا بحجةٍ، فما الذي عند الأمير فيما كتب به إليه؟ فقال: أمر أمير المؤمنين لا يخالف لكني أعفيك من الغل والحديد، أحملك إليه على حال لا توهنك ولا تؤلمك وأوجه بك مع غلامٍ من غلماني أتقدم إليه في ترفيهك وأن لا يعسفك، فقال: جزاك الله أيها الأمير أفضل ما جازى منعماً، فإن رأى الأمير أن يأذن لي في المصير إلى منزلي ومعي من يراعيني إلى أن يردني إلى مجلس الأمير فيأمر بأمره فعل، فقال له: امض؛ ووجه معه خادماً من خدمه، فصار أحمد إلى منزله واستخرج الكتب الثلاثة التي كاتبه بها يحيى بن أكثم وهم بالأنبار، والكتاب الذي ورد وهم بالرحبة، والكتاب الذي ورد وهم بالرقة، ورجع إلى المعتصم فأقرأه الكتاب الأول ثم الثاني ثم الثالث وقال له: إنما بعثت لأكتب بأخبارك وأتفقد أحوالك وأكاتب يحيى بذلك ليقرأه على أمير المؤمنين فخالفت ذلك لما رجوته من الحظوة عندك ولما أملته في غدك. فاستشاط المعتصم غضباً وكاد يخرج من ثيابه غيظاً وتكلم في يحيى بكل مكروه وتوعده بكل بلاءٍ وقال: ويلي على البقار البليد السراويل، وقال لأحمد: يا هذا لقد رعيت لنا رعاية لم يتقدمها إحساننا إليك وحفظت علينا ما نرجو أن نتسع، لمكافأتك عليه ومعاذ الله أن أسلمك أو أفرج عنك أو تنالك يد ولي قدرة على منعها منك، أو أوثر خاصة وحميماً عليك ما امتد بي عمر أو تراخى بي أجل، فكن معي فأمرك نافذ في كل ما ينفذ فيه أمري؛ ولم يجب المأمون على كتابه، فلم يزل معه إلى أن ولي الخلافة وإلى أن ولي الواثق وإلى أيام المتوكل، فأوقع به.

سعة علم المأمون

قال محمد بن حفص الأنماطي: تغدينا مع المأمون في يوم عيدٍ،

قال: وأظنه وضع على مائدته أكثر من ثلاثمائة لونٍ، قال: فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال: هذا نافع لكذا ضار لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم فليجتنب هذا، ومن كان منكم صاحب بلغم فليجتنب هذا، ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا، ومن قصد قلة الغذاء فليقتصر على هذا. قال: فو الله إن زالت تلك حاله في كل لونٍ يقدم إليه حتى رفعت الموائد، فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب عليه السلام في علمه، أو ذكر السخاء كنت حاتم طيء في صفته، أو صدق الحديث فأنت أبو ذرٍ في لهجته، أو الكرم فأنت كعب بن أمامة في فعاله، أو الوفاء فأنت السموأل ابن عاديا في وفائه. فسر بهذا الكلام وقال: يا أبا محمد إن الإنسان إنما فضل بعقله، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحمٍ ولا دم أطيب من دمٍ.

وإما أعفيناك من الأكل معنا

قال عبد الله بن محمود: يحيى بن أكثم قال: كان المأمون إذا قصر بعض من يأكل معه أمر بإقامته عن المائدة ولقد رأيته يوماً وقد أمر أن يقام بابنه العباس عن المائدة لتقصيرٍ كان منه، وقال: إذا قصرت احتشم غيرك لتقصيرك، فقال العباس: لم أقصر ولكني وجدت علةً، قال: هلا ذكرتها قبل جلوسك على الطعام، فإما احتملناك على التقصير وإما أعفيناك من الأكل معنا[1].

الحق أنطقها والباطل أخرسه

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ١٤٨، ١٥٤، ٢٢١، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٨٠ ـ ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٩.

عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه - وقد هم بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم. فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي بحاجتك. فقالت:

يا خير منتصف يهدى له الرشد ::: ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة ::: عدى عليها فلم يترك لها سبد
وابتز مني ضياعي بعد منعتها ::: ظلما وفرق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد ::: عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفي ::: وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلس الأحد قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين - وأومأت إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

وأين يقع شكري في جنب ما أنعم الله بك علي؟

قال يحيى بن أكثم: إني عند المأمون يوماً، حتى أتي برجل ترعد فرائصه، فلما مثل بين يديه، قال له المأمون: كفرت نعمتي ولم تشكر معروفي؛ قال له: يا أمير المؤمنين، وأين يقع شكري في جنب ما أنعم الله بك علي؟ فنظر المأمون إلي وقال متمثلاً:

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد ::: لكثرة مال أو علو مكان
لما ندب الله العباد لشكره ::: فقال اشكروا لي أيها الثقلان

ثم التفت إلى الرجل، فقال له: هلا قلت كما قال أصرم بن حميد:

رشحت حمدي حتى إنني رجل ::: كلي بكل ثناء فيك مشتغل
خولت شكري ما خولت من نعم ::: فحر شكري لما خولتني خول

لو قدرتُ أن أقيك حَرَّ النار لفعلتُ فكيف الشمسُ؟

وقال يحيى بن أكثم: ما شيتُ المأمون يوماً من الأيام في بُستان مُؤنسة بنت المَهديّ، فكنت من الجانب الذي يَسترّه من الشَمس، فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع، وأردتُ أن أدور إلى الجانب الذي يَسْترّه من الشمس، فقال: لا تفعل، ولكن كُن بحالك حتى أسترك كما سَتَرْتني، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو قدرتُ أن أقيك حَرَّ النار لفعلتُ فكيف الشمسُ؟ فقال: ليس هذا من كرم الصُحبة، ومَشى ساتراً لي من الشّمس كما سترته[1].

ما أظرف هذا الواو

وحكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء. فقال: لا وأيد الله أيد الأمير فقال المأمون: ما أظرف هذا الواو وما أحسنها في موضعها.

ففيم بحثنا إلى الآن؟

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٨، ١٣٧، ٢٢٢ و٢ / ٢٤٠ - ٢٤٤ و٣/٤٧.

كان يحيى بن أكثم يناظر رجلاً في إبطال القياس؛ وكان الرجل يقول في أثناء مناظرته: يا أبا زكريا، فقال: لست أبا زكريا؛ فقال الرجل: يحيى يكون كنية أبا زكريا؛ فقال: يحيى بن أكثم: ففيم بحثنا إلى الآن؟ يعني أنّك قلت بالقياس وعملت به[1].

يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟

قال ثمامة صاحب الكلام: كان المأمون قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً في الطعن عليه، قال: ففثأه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال: يا أمير المؤمنين العامة لا تحتمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرةٌ ونبوةٌ لا تستقال ولا يُدرى ما تكون عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وآمن في العاقبة وأجرى في التدبير، فركن إلى قوله، فلما دخلت عليه قال: يا ثمامة قد علمت ما كنا دبّرناه في أمر معاوية وقد عارضنا رأيٌ هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة، ثم أخبرني أن يحيى بن أكثم حذّره وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي، فقلت: يا أمير المؤمنين والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى، والله لو بعثت إليها إنساناً على عاتقه سوادٌ ومعه عصاً لساق إليك منها عشرة آلاف! والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل وعز أن سوّاها بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً، فقال تبارك وتعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾} [الفرقان: ٤٤]، والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار فإذا إنسان قد بسط

(١) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١ / ٢٨٣، ٢٩٤، ٣ / ٢٣٩.

كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلمة، وقد تألبوا عليه واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت: يا هذا أرى عينيك أحوج الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء! فما بالك يا هذا لا تستعمله؟ قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر، فأقبل عليّ الجماعة فقالت: صدق والله أنت جاهل، وهمّوا بي، فقلت: والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر! فتخلصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جل ذكره من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر، قلت: أجل.

أنا بؤبؤ هذا الأمر وابن بؤبئه

قال أبو سعيد الضرير: سمعت ابن الأعرابي يقول: بعث إليّ المأمون فصرت إليه وإذا هو مع يحيى بن أكثم يطوفان في حديقة، فلما نظر إليّ ولاني ظهره فجلست فلما أقبل قمت قائماً فأسرّ إلى يحيى بشيء ما فهمت كله إلا ما قال: ما أحسن أدبه! وقد أقبل إلى مجلسه ثم التفت إليّ فقال: يا محمد بن زياد من أشعر العرب في وصف الخمر؟ فقلت: الذي يقول:

تريك القذى من دونها وهي دونه ::: إذا ذاقها من ذاقها يتمطّق

فقال: أحسن الناس قولاً في صفة الخمر الذي يقول:

فتمشّت في مفاصلهم ::: كتمشي البرء في السقم
فعلت في البيت إذ مُزجت ::: مثل فعل الصبح في الظلم

فاهتدى ساري الظلام بها ::: كاهتداء السفر بالعلم

قلت: فائدة أمير المؤمنين. ثم قال: ما معنى قول هند:

نحن بنات طارق ::: نمشي على نمارق

إن تقبلوا نعانق ::: أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

ففكرت في نسبها ونسب أبيها فلم أجد طارقاً فقلت: ما أعرف طارقاً يا أمير المؤمنين. فقال: إنما قالت إنها في العلو والشرف بمنزلة الطارق وهو النجم، من قول الله، عز وجل، والسماء والطارق، قلت: فائدة يا أمير المؤمنين ثانية. ثم التفت إلى يحيى بن أكثم فقال: أنا بؤبؤ هذا الأمر وابن بؤبئه. فلم أدر ما قال وقمت لأخرج. فلما نظر إليّ وقد قمت رمى إليّ بعنبرة كانت في يده بعتها بخمسة آلاف درهم، قال: فرجعت إلى كتبي فنظرت فيها لأعرف ما قال فوقعت على هذه الأبيات لبعض الأعراب:

كأنما بنت أبي الخيريه ::: قاعدةٌ في إتبها لُؤيليه

قد فاقت البؤبؤ والبؤبئه

فعلمت أنه عنى السيد وابن السيد [1].

بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء

قال أبو العيناء حصلت لي ضيقه شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضي فقال إن أمير المؤمنين جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك في الحضور قلت نعم فمضيت معه الى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته:

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٦٨، ١٧٧ - ١٧٩، ١٨٩، ٢١٢ - ٢١٣.

لقد رجوتك دون النـــاس كلـــهم ::: وللرجاء حقـــوق كلـــها تجـــب
إن لم يكن لي أسباب أعـــيش بهـــا ::: ففي العلا لك أخلاق هي الســـبب

فقال يا سلامة أنظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين فقال بقية من مال قال فادفع له منها مائة ألف درهم وابعث له بمثلها في كل شهر فلما بعد أحد عشر شهرا مات المأمون فبكي عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول

شيئان لو بكت الـــدماء عليهمـــا ::: عينـــاى حـــتى يؤذنـــا بـــذهاب
لم يبلغا المعشـــار مـــن حقيهمـــا ::: فقد الشـــباب وفرقـــه الأحبـــاب

أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه؟

وحكي عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوما: سر بنا نتفرج فسارا فبينما هما في الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له فنفرت دابته فألقته على الأرض صريعا فأمر بضرب عنق ذلك الرجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور وهو عالم به ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ولأنت علي ما لم تفعل أقدر مني على رد ما قد فعلت قال فبكى المأمون وقال بالله أعد علي ماقلت فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه؟ والنبي يقول:«المرء بأصغريه قلبه ولسانه».

والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه فلما هم المأمون بالانصراف قال الرجل يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراني ثم أنشد يقول:

ما جاد بالوفر إلا وهـو معتـذر ::: ولا عفا قـط إلا وهـو مقتـدر
وكلمـا قصـدوه زاد نائلـه ::: كالنار يوخذ منها وهـي تستعر

نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد فلما مثل بين يديه قال له ما الذي يقال عنك قال إني نبي كريم قال فأي شيء يدل على صدق دعواك قال سل عما شئت قال أريد أن تجعل هذه المماليك له بشيء وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى إنه إبراهيم الخليل فقال له المأمون إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين قال وما براهينه قال أضرمت له نارا وألقي فيها فصارت عليه بردا وسلاما ونحن نوقد لك نارا وتطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك قال أريد واحدة أخف من هذه قال فبراهين موسى قال وما براهينه قال ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى وضرب بها البحر فانفلق وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء قال وهذه علي أصعب من الأولى قال فبراهين عيسى قال وما هي قال إحياء الموتى قال مكانك قد وصلت أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة فقال يحيى أنا أول من آمن بك صدق وتنبأ آخر في زمن المأمون فقال المأمون أريد منك بطيخا في هذه الساعة قال أمهلني ثلاثة أيام قال ما أريده إلا الساعة قال ما أنصفتني يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ما يخرجه إلا في ثلاثة أشهر فما تصبر أنت علي ثلاثة أيام فضحك منه ووصله وتنبأ آخر في زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له من أنت قال أنا أحمد النبي قال لقد ادعيت زورا فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي فهل تذمه أنت فضحك المأمون منه وخلى سبيله وتنبأ آخر في زمن المتوكل فلما حضر بين يديه قال له أنت نبي قال نعم قال فما الدليل على صحة نبوتك قال

القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى:{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾} [النصر: ١]، وأنا إسمي نصر الله قال فما معجزتك قال ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته فقال الوزير أما أنا فأشهد أنه نبي الله وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن به فضحك المتوكل وأطلقه وادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتى به إلى خالد فقال له ما تقول قال عارضت القرآن قال بماذا قال قال الله تعالى:{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾} [الكوثر: ١]، الآية وقلت إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ولا تطع كل ساحر فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب فمر به خلف بن خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة وقال إنا أعطيناك العود فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتي المأمون برجل ادعى النبوة فقال له: ألك علامة على نبوتك قال: علامتي أني أعلم ما في نفسك. قال: وما في نفسي قال: في نفسك أني كاذب قال صدقت ثم أمر به إلى السجن فأقام فيه أياما ثم أخرجه فقال هل أوحى إليك بشيء قال لا قال ولم قال لأن الملائكة لا تدخل الحبوس فضحك منه وخلى سبيله وأتي بامرأة تنبأت في أيام المتوكل فقال لها أنت نبية قالت نعم قال أتؤمنين بمحمد قالت نعم قال فإنه قال لا نبي بعدي قالت فهل قال لا نبية بعدي فضحك المتوكل وأطلقها وتنبأ رجل ي سمى نوحا وكان له صديق نهاه فلم يقبل فأمر السلطان بقتله فمر به صديقه فقال له يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصاري[1].

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١/٢٢١، ٣٦٣.

فما بالي أنسب إلى صناعة وأنا أحسن غيره كما أحسن منه!

دخل أبو إسحاق بن إبراهيم الموصليّ إلى يحيى بن أكثم وعليه طيلسانٌ أزرق، فتذاكروا الحديث فجرى معهم، ثم الفقه ثم النّحو ثم الشعر، فما مرّ شيءٌ إلاّ زاد عليه. ثم التفت إلى يحيى بن أكثم فقال: أصلحك الله، هل قصّرتَ في شيء مما جرى؟ فقال: بل زدتَ: قال: فما بالي أنسب إلى صناعة وأنا أحسن غيره كما أحسن منه! فقال: الجوابُ في هذا على العطويّ. فقلت: أخبرني عنك أنت في الفقه كأبي حنيفة والشافعيّ: قال: لا. قلتُ: فأنت في الحديث كيحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهديّ؟ قال: لا. قلت: فأنت في النّحو كسيبويه؟ قال: لا. قلت: فإنّما نسبت إلى العلم الذي أنت فيه أوحد لم يشاركك فيه غيرك. فسكت[1].

سليه ربَّ يحيى بن أكثما

وقال عبد الصمد بن المعذّل في حين قدوم يحيى بن أكثم البصرة، قالت له امرأته لو أتيته فسألته، فقال:

تكلّفني إذلال نفسي لعزّها ::: وهان عليها أن أهان لتكرما
تقول: سل المعروف يحيى بن أكثمٍ ::: فقلت سليه ربَّ يحيى بن أكثما

يحيى بن أكثم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكثم صف لي حالي عند الناس فقال يا أمير المؤمنين قد انقادت لك الأمور بأزمتها وملكتك الأمة فضول أعنتها بالرغبة إليك والمحبة لك والرفق منك والعياذ بك بعدلك فيهم

٢/١١٣، ٥٢٢.

(١) أبو أحمد العسكري، المصون في الأدب، ص ١٩، ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ / ٣٣، ٢١٢.

ومنك عليهم حتى لقد أنيستهم سلفك وآيستهم من خلفك فالحمد لله الذي جمعنا بك بعد التقاطع ورفعنا في دولتك بعد التواضع

فقال يا يحيى أتحبيرا أم ارتجالا قال قلت وهل يمتنع فيك وصف أو يتعذر على مادحك قول أو يفحم فيك شاعر أو يتلجلج فيك خطيب.

أنت الحاكم الأكبر والإمام الأعظم وأنت أولى بالكلام

وقال يحيى بن أكثم أراد المأمون أن يزوج ابنته من علي بن موسى الرضا فقال يا يحيى تكلم فأجللته أن أقول أنكحت فقلت يا أمير المؤمنين أنت الحاكم الأكبر والإمام الأعظم وأنت أولى بالكلام فقال: الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته ولا إله إلا هو إقرارا بربوبيته وصلى الله على محمد عند ذكره أما بعد فإن الله قد جعل النكاح دينا ورضيه حكما وأنزله وحيا ليكون سبب المناسبة ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى، وأمهرتها أربعمائة درهم اقتداء بسنة رسول الله وانتهاء إلى ما درج إليه السلف والحمد لله رب العالمين[1].

ونتلقَّاه بالشكر الدائم

وقال يحيى بن أكثم للمأمون يذكر حاجةً له قد وعده بقضائها وأغفل ذلك: أنتَ، يا أمير المؤمنين، أكرمُ من أن نعرِّضَ لك بالاستنجاز، ونقابلك بالادِّكار، وأنت شاهدي على وَعْدِك، وأن تأمر بشيء لم تتقدَّمْ أيامه، ولا يقدر زمانه، ونحن أضعفُ من أن يستوليَ

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ٣ / ١٣٢، ٣٤٩.

علينا صبرُ انتظارِ نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده إحسان، ولا يُعْجِزُه كرَم، فعجِّل لنا يا أميرَ المؤمنين ما يزيدك كرماً، وتزدادُ به نعماً، ونتلقَّاه بالشكر الدائم، فاستحسن المأمون هذا الكلام، وأمر بقضاء حاجته[1].

إن درسي كان انتهى إلى ههنا

ورأى يحيى بن أكثم في دار المأمون جماعة من صباح الغلمان فقال: لولا أنتم لكنا مؤمنين؛فرفع ذلك إلى المأمون فعاتبه فقال: إن درسي كان انتهى إلى ههنا [2].

ولكنه خاف أن أعلم عليه

كان المتوكل يلعب بالنرد مع الفتح بن خاقان، فقيل له: يحيى بن أكثم يستأذن. فأمر برفع النرد، ودخل يحيى، فلما جلس قال له: يا يحيى، إن فتحاً احتشمك وأمر برفع النرد، فقال: يا أمير المؤمنين، لم يكن به احتشامي، ولكنه خاف أن أعلم عليه.

وليس هذا وقتك

حضر يحيى بن أكثم مجلس المتوكل، وتغدى، ثم حضر الشراب والغناء، فقال له المتوكل: يا يحيى، قد كثر التخليط، وليس هذا وقتك. فقال يحيى بن أكثم: ما كنتم إلى قاض قط أحوج منكم إليه إذا كثر التخليط. فضحك وأمر له بمال.

كذا صاحبه يتقدمكم

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ٢ / ٣٩٦.

(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٤٠٩، ٤٣٠.

وكان إسماعيل بن إسحاق يصحب يحيى بن أكثم، فركب يحيى يوماً يريد العبور على الجسر على حمار، وإسماعيل معه على حمار له مع أصحابه، فامتنع حمار يحيى من العبور، فتقدم إسماعيل وعبر حماره، وتبعه حمار يحيى وحمير من كانوا معه من أصحابه. فقال إسماعيل: حماري يتقدم حميركم، كذا صاحبه يتقدمكم.

وليس لهم أحد غير الله

أمر يحيى بن أكثم برجل إلى الحبس، فقال: إني معسر. فلم يلتفت إليه، فقال: من لعيالي؟ قال: الله لهم. فقال الرجل: أراني الله عيالك وليس لهم أحد غير الله.

أي دواة لم يلقها قلمه؟

كتب العباس بن المأمون، في رقعة: أي دواة لم يلقها قلمه؟ وألقاها بين يدي يحيى بن أكثم، فقرأها ووقع فيها: دواتك ودواة أبيك.

ما رأيت أتم دهاء ولا أقرب فطنة منكما

وقف أحمد بن أبي خالد بين يدي المأمون وخرج يحيى بن أكثم وجلس على طرفه فقال أحمد: يا أمير المؤمنين؛ إن يحيى صديقي وأخي، ومن أثق به في أمري كله ويثق بي، وقد تغير عما كنت أعهده عليه، فإن رأيت أن تأمره بالعود إلى ما كان عليه. فإني له على مثله. فقال المأمون: يا يحيى؛ إن فساد أمر الملوك بفساد الحال بين خاصتهم. وما يعدلكما عندي أحد. فما هذا النزاع بينكما؟ فقال له يحيى: والله يا أمير المؤمنين إنه ليعلم أني له على أكثر مما وصف، وأني أثق بمثل ذلك منه. ولكنه رأى منزلتي هذه منك فخاف أن أتغير له يوماً، فأقدح فيه عندك، فتقبل قولي فيه فأحب أن يقول هذا لتأمرني بأمر لو بلغ نهاية مساءتي ما قدرت أن أذكره بسوء عندك.

فقال المأمون: أكذاك هو يا أحمد؟ قال: نعم. قال: أستعين الله عليكما. ما رأيت أتم دهاء ولا أقرب فطنة منكما.

هو القاضي نفسه

لما خرج المأمون إلى فم الصلح لينقل بوران بنت الحسن، إذا جماعة على الشط وفيهم رجل ينادي بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين؛ نعم القاضي قاضي جبل جزاه الله عنا أفضل ما جزى أحداً من القضاة؛ فهو العفيف النظيف، الناصح الجيب المأمون الغيب. وكان يحيى بن أكثم يعرف قاضي جبل وهو ولاه وأشار به. وإذا هو القاضي نفسه، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذا الذي ينادي ويثني على القاضي هو القاضي نفسه. فاستضحك المأمون واستطرفه وأقره على القضاء.

وقد كان أهل جبل رفعوا عليه وذكروا أنه سفيه حديد يعض رءوس الخصوم فوقع المأمون: يشنق إن شاء الله.

كان يكرهه

وعزل يحيى بن أكثم قاضياً كان له على حمص من أهلها فلما قدم إليه رأى شيخاً وسيماً فقال له: من جالست يا شيخ؟ فقال: أبي. فظن أن أباه من أهل العلم. قال: فمن جالس أبوك: قال: مكحولاً قال: فمن جالس مكحول؟ قال: سفيان الثوري. قال: ما كان يقول أباك في عذاب القبر؟ قال: كان يكرهه[1].

تصدق بربع ماله

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢ / ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١٣٤، ١٤٨، ٤ /٨٠، ٢١٤، ٢١٩.

لما استقضي يحيى بن أكثم جاءه رجل فقال: إني نذرت أن أتصدق بجزء مالي، قال: تصدق بربع مالك بقول الله تعالى:{فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا} [البقرة: ٢٦٠] (١).

وأنى لي بمن يذكرني بما أنا إليه صائر

قال يحيى بن أكثم: كنت أرى شيخاً يدخل على المأمون في السنة مرة، وكان يخلو به خلوة طويلة ثم ينصرف فلا نسمع له خبراً، ولا نرى له أثراً، لا نقدم على المسألة عنه فلما كان بعد قال لنا المأمون: واأسفاً على فقد صديق مسكون إليه، موثوق به، يلقى إليه العجر والبجر، ويقتبس منه الفوائد والغرر، قلنا وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أما كنت ترى شيخاً يأتينا في الفرط، ونخلو به من دون الناس؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد تأخر عن إبانه، وأظن أنه قد قضى، قلت: الله يمد في عمر أمير المؤمنين، وما في ذلك؟ قال: كان صديقي بخراسان، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب، وأجد به ما يوجد بالولد السار المحبوب ولقد كنت أستمد منه رأياً أقوم به أود المملكة، وأصل به إلى رضاء الله في سياسة الرعية، وآخر ما قال لي عند وداعه أن قال: يا أمير المؤمنين إذا استقش ما بينك وبين الله تعالى فابلله، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالاقتداء به في الإحسان إلى عباده، فإنه يحب الإحسان إلى عباده، كما تحب الإحسان إلى ولدك من حاشيتك، والله ما أعطاك الله القدرة عليهم إلا لتصر على إحسانك إليهم بالشكر على حسناتهم، والتغمد لسيئاتهم، وأي شيء أوجه لك عند ربك من أن تكون أيامك أيام عدل وإنصاف، وإحسان،

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١ / ٣٤٦، ٢ / ١٥.

وإسعاف، ورأفة، ورحمة، ومن لي يا يحيى بمثل هذا القائل، وأنى لي بمن يذكرني بما أنا إليه صائر [1].

قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء

ومن محاسن الأخلاق ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال كنت نائماً ذات ليلة عند المامون فعطش فامتنع ان يصيح بغلام يسقيه وانا نائم فينغص عليَّ نومي فرأيته قد قام يمشي على أطراف أصابعهِ حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطا خطوات خافتاً لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم في أول الليل وآخره فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام فلما تحركت وثب قائماً وصاح يا غلام وتأهب للصلاة ثم جاءني فقال لي كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء وأحب لك سيرتهم فهناك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لي بألف دينار فأخذتها وأنصرفت.

قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فانتبه.

وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقتين ويقول لقيِّم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول قال يحيى ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا ما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل فكان

(١) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ١ / ١٩.

يجذبني أن أتحول أنا في الظل ويكون هو في الشمس فامتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل فقلت والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس ووضع يده على عاتقي وقال بحياتي عليك إلا وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

لا يضيع المعروف أين وضع

قال يحيى بن أكثم رحمة الله تعالى عليه: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي أتعرف قائل هذا البيت:

الخير أبقى وإن طال الزمان به ::: والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زدا

فقلت يا أمير المؤمنين إن هذا البيت شأنا مع عبيد بن الأبرص فقال عليَّ بعبيد فلما حضر بين يديه قال له أخبرني عن قضية هذا البيت فقال يا أمير المؤمنين كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم تقدم ترَ ما بالناس فتقدمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع أسود فأغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى فعارضنا ثانياً فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه فقلت أفدي هذا العالم بنفسي وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء تقلدتها وسللت سيفي

وتقدمت فلما رآني قربت منه سكن وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعني فيها فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القربة تسيب في الرمل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وإنصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك وحططنا في منزلتنا تلك في ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أرَ أحداً ولم أهتدِ إلى ما أفعله وأخذتني حيرة وجعلت أضطرب فإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المضلّ مركبه ::: ما عنده من ذي رشادٍ يصحُبه
دونك هذا البكر منّا تركبه ::: وبكرك الميمون حقاً تجنبه
حتى إذا ما الليل غاب غيهبه ::: عند الصباح في الفلا تسيّبه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي وبكري إلى جانبي فانختّه وركبته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة وانفجر الفجر ووقفت البكر فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى بكري وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ::: ومن هموم تضلّ المدلج الهادي
الا تخبّرني بالله خالقنا ::: من الذي جاء بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد أبلغتنا مننا ::: بوركت من ذي سنامٍ رائحٍ غادي

فالتفت البكر إلي وهو يقول:

أنا الشجاع الذي ألفيتني رمضاً ::: والله يكشف ضرَّ الخائر الصادي
فجدت بالماء لمّا ضنَّ حاملُه ::: تكرُّماً منك لم تمنن بإنكاد

فالخير أبقى وإن طال الزمـــان بـــه ::: والشرُّ أخبثُ من أوعيت مـــن زاد
هذا جـــزاؤك مـــنّي لا أمـــنُّ بـــه ::: فإذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع [1].

اعرض طعامك وابذله لمن دخلا

عن يحيى بن أكثم: دخلت على المأمون وبين يديه طعام في طبق فدعاني إليه، وإذا هو لحم قليل.فقال:

اعرض طعامك وابذله لمن دخـــلا ::: واحلف على من أبى واشكر لمن أكلا
ولا تكن سابري العرش محتشـــماً ::: من القليل فست الدهر محـــتفلا [2]

هذا لم يراقبني فيك، كيف أصرفه؟

لما عزل المأمون إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، استقضى على مدينة المنصور أبا الوليد بشر بن الوليد الكندي.

وكان بشر علماً من أعلام المسلمين، وكان عالماً، ديناً، خشناً في باب الحكم، واسع الفقه، وهو صاحب ابي يوسف، ومن المقدمين عنده، وحمل الناس عنه من الفقه والمسائل ما لايمكن جمعه.

وقال طلحة: حدثني عبد الباقي بن قانع، عن بعض شيوخه: أن يحيى بن أكثم شكى بشر بن الوليد إلى المأمون، وقال: إنه لا نفذ قضائي، وكان يحيى قد غلب على المأمون، حتى كان عنده أكبر من ولده، فأقعده المأمون معه على سريره، ودعا بشر بن الوليد.

فقال له: ما ليحيى يشكوك، ويقول إنك لا تنفذ أحكامه؟ قال: يا أمير المؤمنين، سألت عنه بخراسان، فلم يحمد في بلده ولا في جواره.

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص ١٧٣، ١٩١ - ١٩٢.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٢٦٤.

فصاح به المامون، اخرج، فخرج بشر.

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، قد سمعت، فاصرفه.

فقال: ويحك، هذا لم يراقبني فيك، كيف أصرفه؟ ولم يفعل [1].

دع ذا عنك

قال ابن الشاذكوني: ذكر يحيى بْن أكثم عمار بْن مسلم، وأثنى عليه؛ فقلت: أتوثقه؟ فقال: نعم، قلت: فوالله الذي لا إله إلا هو لقد سمعته يرمي حاكماً من حكام المسلمين بأمر يجب عليه فِيْهِ حد من حدود الله، قال: ومن ذلك الحاكم؟ قال: دع ذا عنك، فقد علمت الذي أردت [2].

كل واحد عمّ الآخر

كان يحيى بن أكثم يمتحن من يريدهم للقضاء، فقال الرجل: ما تقول في رجلين زوّج كل واحد منهما الآخر أمّه فولد لكل واحد من امرأته ولد، ما قرابة ما بين الولدين؟ فلم يعرفهم، فقال له يحيى: كل واحد من الولدين عمّ الآخر لأمه [3].

هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء

خرج سفيان بن عيينة إلى أصحاب الحديث وهو ضجر فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد وجالس أبا سعيد الخدري، وجالست عمرو بن دينار وجالس جابر بن عبد الله، وجالست عبد الله بن دينار وجالس ابن عمر، وجالست الزهري وجالس أنس بن مالك؟! حتى عدد جماعة، ثم أنا أجالسكم، فقال له

(١) القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة، ١ / ٣٠٢.
(٢) أخبار القضاة، ٢ /١٦٣.
(٣) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ١ / ٢٧.

حدث في المجلس: أتنصف يا أبا محمد؟ قال: إن شاء الله، قال له: والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا، فأطرق وتمثل بشعر أبي نواس.

خل جنبيك للرام ::: وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ::: لك من داء الكلام

فسئل من الحدث؟ فقالوا: يحيى بن أكثم، فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء، يعني: السلطان.

أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة

عن أحمد بن أبي داود ومحمد بن منصور: كنا مع المأمون في طريق الشام، فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال لنا يحيى بن أكثم: بكرا غداً إليه، فإن رأيتما للقول وجهاً فقولا، وإلا فاسكتا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول، وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر، وأنا أنهى عنهما، ومن أنت يا أحول حتى تنهى عما فعله النبي ﷺ وأبو بكر فأومأت إلى محمد بن منصور ان أمسك، رجل يقول في عمر بن الخطاب ما يقول نكلمه نحن؟ فأمسكنا، وجاء يحيى فجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيراً؟ قال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟؟ قال: نعم، المتعة زنى، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله تعالى وحديث رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾} [المؤمنون: ١ - ٧]، يا أمير

المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: فهي الزوجة التي عني الله تعالى، ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذا من العادين. وهذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما محمد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: " أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها.

فالتفت إلينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهري؟ قلنا: نعم يا أمير المؤمنين، رواه جماعة منهم مالك. فقال: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة، فنادوا بها.

إلا أن تؤثر الله على ما سواه

قال مسلم بن حاتم الأنصاري: كنا يوماً عند زهير البابي نعوده، وإذا نحن برجل يقول في الدار: يا جارية، يا غلام، فأشرف عليه بعض من كان يخدمه فقال: من هذا؟ فقال: أخبر أبا عبد الرحمن أن القاضي بالباب، فأخبره، فقال زهير: مالي وللقاضي وما للقاضي ولي قال: وقد كان جاءه قبل ذلك بيوم فحجبه، فقدم إليه رجلين من أمنائه: العيشي وإسحاق بن حماد بن زيد، وقال لهما: إني ذهبت إلى زهير فحجبني، فاغدوا عليه وكونا عنده حتى أجيء فإن أذن لي فذاك وإلا فسهلا أمري، فأقبل عليه العيشي فقال: يا أبا عبد الرحمن، قاضي أمير المؤمنين جاء يعودك إن رأيت أن تأذن له، قال يا عيشي، أنت أيضاً من هذا الضرب؟ ما للقاضي وعيادة زهير فأقبل عليه ابن حماد فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن رأيت أن تأذن له فلعله أن يسمع منك كلمة ينفعه الله بها، فما زالا بالشيخ حتى قال: ائذنوا له، فدخل وهو يومئذ كهل، وعليه كسوة عجيبة، قال: فتحسحس جميع من في البيت، وزهير لا يتحرك حتى جلس يحيى، فانكب على

رأسه فقبله ثم قال: يا أبا عبد الرحمن، كيف أصبحت؟ كيف تجدك؟ قال: أنا بخير والحمد لله وأنا في عافية، قال: جعلك الله بخير يا أبا عبد الرحمن، جئتك أمس فمنعتني، وجئتك اليوم، فكدت ألا تأذن لي، بلغك عني أمر تكرهه؟ اشتكاني إليك أحد بظلم أحد من قبلي فأستغفر الله وأرجع وأتوب؟ إلى أن قال في كلامه: والله يا أبا عبد الرحمن ما تركت. فقال زهير: خذوا بيدي، فجلس، فقال: يا يحيى، من لم يدعك؟ ضربت سوطاً قط أخذ من مالك دينار قط حبست يوماً إلى الليل قط قال: لا والله، قال: ولكن ما أرى الله أتى بك من أقاصي مرو وقلدك هذه القلادة لخير يريده بك، قال: فجعل يبكي، ثم قال في آخر كلامه: يا أبا عبد الرحمن، لك حاجة توصي بها؟ قال: مالي إليك حاجة إلا أن تؤثر الله على ما سواه.

يا يحيى اعتبر بما ترى، واتعظ بما تسمع

قال يحيى بن أكثم: كان لي أخ مروزي وكان يكتب إلي في الأحايين، وما كتب إلي إلا انتفعت بكتابه، فكتب إلي مرة: بسم الله الرحمن الرحيم، يا يحيى اعتبر بما ترى، واتعظ بما تسمع، قبل أن تصير عبرة للناظرين وعظة للسامعين. قال: قلت: لقد جمع فيه.

كحية الفخ دقت عنق عصفور

لما ولي يحيى بن أكثم القضاء كتب إليه أخوه عبد الله بن أكثم من مرو وكان من الزهاد:

ولقمة بجريش الملح آكلها ::: ألذ من تمرة تحشى بزنبور[1]
وأكلة قربت للهلك صاحبها ::: كحية الفخ دقت عنق عصفور

(١) الزُّنْبُورُ، بالضَّمّ: ذُبَابٌ لَسّاعٌ، وهو الدَّبُور.

قول قاطن وعمل ظاعن

لقي رجل يحيى بن أكثم وهو على قضاء القضاة فقال له: أصلح الله القاضي: كم آكل؟ قال: فوق الجوع ودون الشبع. قال: فكم أضحك؟ قال: حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك. قال: فكم أبكي؟ قال: لا تمل البكاء من خشية الله تعالى، قال: فكم أخفي من عملي؟ قال: ما استطعت؟ قال: فكم اظهر منه؟ قال: ما يقتدي بك البر الخير، ويؤمن عليك قول الناس. فقال الرجل: سبحان الله، قول قاطن وعمل ظاعن[1].

إيش توسمت في؟

جاء رجل يسأل يحيى بن أكثم فقال له: إيش توسمت في؟ أنا قاض، والقاضي يأخذ ولا يعطي، وأنا من مرو، وأنت تعرف ضيق أهل مرو، وأنا من تميم، والمثل إلى بخل تميم.

الحق حبسه، والحق يطلقه

لما قدم يحيى بن أكثم مع المأمون دمشق كان ينظر في أمور الناس، فدخل إليه رجل يوماً فكلمه بكلام لا يصلح، فأمر بحبسه، فركب إليه المشايخ في العشي - قال ابن ذكوان وكان فيهم -: فكلمناه وسألناه يخليه، فقال: ما أنا حبسته، فكأنا أنكرنا ذلك من قوله: قال: الحق حبسه، والحق يطلقه.

أميرنا يرتشي وحاكمنا ::: يلوط والرأس شر ما راس

وكان يحيى بن أكثم أعور. مازح المأمون يحيى بن أكثم وقد مر غلام أمرد فقال: يا يحيى - وأومأ إلى الغلام - ما تقول في مُحرم اصطاد ظبياً؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحسن بإمام مثلك

(١) مرتحل.

مع فقيه مثلي، قال: فمن القائل؟

قاض يـرى الحـد في الزنـا ولا ::: يرى على من يلـوط مـن بـاس

قال: من عليه لعنة الله، وفي آخر: أو ما تعرف من قاله؟ قال: لا، قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

أنطقني الـدهر بعـد إخراسـي ::: لنائبـات أطلـن وسواسـي
يا بؤس للـدهر لا يـزال كمـا ::: يرفع من ناس يحـط مـن نـاس
لا أفلحـت أمـة وحـق لهـا ::: بطـول نكـس وطـول اتعـاس
ترضى بـيحيى يكـون سائسـها ::: ولـيس يحـيى لهـا بسـواس
قاض يـرى الحـد في الزنـا ولا ::: يرى على من يلـوط مـن بـاس
يحكـم للأمـرد الغريـر علـى ::: مثـل جريـر ومثـل عبـاس
فالحمد لله كيف قد ذهـب الـ ::: عـدل وقـل الوفـاء في النـاس
أميرنـا يرتشـي وحاكمنـا ::: يلـوط والـرأس شـر مـا راس
لو صلح الـدين واسـتقام لقـد ::: قام على النـاس كـل مقيـاس
لا أحسـب الجـور ينقضـي ::: وعلى الأمة وال مـن آل عبـاس

فوجم المأمون وقال: هذا مزاح قد تضمن إسماعاً قبيحاً، وأنشأ يقول:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظـاهراً ::: فأعقبنـا بعـد الرجـاء قنـوط
وهل تصلح الدنيا ويصلح أهلـها ::: وقاضي قضاة المسـلمين يلـوط

زاد في آخر وقال: ينبغي أن ينفى احمد بن أبي نعيم إلى السند [1].

إنما حبستهم على التعريض

تولى يحيى بن أكثم ديوان الصدقات على الأضراء [2]، فلم

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٨ / ١٨٢.
(٢) جمع ضرير وهو من فقد بصره.

يعطهم شيئاً، فطالبوه، فلم يعطهم، وقال: ليس لكم عند أمير المؤمنين شيء، فقالوا: لا تفعل يا أبا سعيد، فقال: الحبس الحبس، فحبسوا جميعاً، فلما كان الليل ضجوا، فقال المأمون: ما هذا؟ قالوا: الأضراء، حبسهم يحيى بن أكثم، قال: لم حبسهم؟ قال: كنوه فحبسهم، فدعاه، فقال: حبستهم على أن كنوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أحبسهم على ذلك، إنما حبستهم على التعريض بي قالوا لي: يا أبا سعيد، يعرضون بشيخ يأتي اللواط في الحربية [1].

لولا شيبتك لعذبتك

قال محمد بن سلم الخواص الشيخ الصالح: رأيت يحيى بن أكثم القاضي في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه، وقال لي: يا شيخ السوء، لولا شيبتك لأحرقتك بالنار، فأخذني ما يأخذ العبد بين يدي مولاه. فلما أفقت قال لي: يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار، فأخذني ما يأخذ العبد بين يدي مولاه. فلما أفقت قال لي: يا شيخ السوء فذكر الثالثة مثل الأوليين. فلما أفقت قلت: يا رب، ما هكذا حدثت عنك، فقال الله: وما حدثت عني - وهو أعلم بذلك - قلت: حدثني عبد الرزاق بن همام، حدثنا معمر بن راشد عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك عن نبيك ﷺ عن جبريل عنك يا عظيم أنك قلت: ما شاب لي عبد في الإسلام شيبةً إلا استحييت منه أن أعذبه بالنار. فقال الله: صدق عبد الرزاق، وصدق الزهري، وصدق أنس، وصدق نبيي، وصدق جبريل. أنا قلت ذلك، انطلقوا به إلى الجنة.

زاد في آخر بمعناه: إلا أنك خلطت علي في دار الدنيا وقيل: إن

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٨ / ١٨٥.

يحيى رني في المنام فقيل له: إلى أي شيء صرت؟ قال: إلى الجنة، قيل له: إلى الجنة؟! قال: نعم، إني رأيت رب العزة جل وعز فقال لي: يا يحيى، لولا شيبتك لعذبتك، فقلت: يا رب، حدثني عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس بن مالك عن محمد نبيك عن جبريل أنك قلت: إني لأستحي أن أعذب أبناء ثمانين.

قال: صدق جبريل، صدق محمد نبيي، صدق أنس بن مالك، صدق قتادة، صدق معمر، صدق عبد الرزاق: إني لأستحي أن أعذب أبناء ثمانين، وكساني حلتين ورداءين وحلة خضراء [1].

ذهب الناس، وبقي النسناس

عن شبيب بن شيبة بن الحارث، قال: قدمت الشحر [2] على رئيسها، فتذاكرنا النسناس [3]، فقال: صيدوا لنا منها.

فلما أن رحت إليه، إذا بنسناس مع الأعوان، فقال: أنا بالله ثم بك!

فقلت: خلوه.

فخلوه، فخرج يعدو، وإنما يرعون النبات، فلما حضر الغداء، قال: استعدوا للصيد، فإنا خارجون.

فلما كان السحر، سمعنا قائلا يقول: أبا محمد، إن الصبح قد أسفر، وهذا الليل قد أدبر، والقانص قد حضر، فعليك بالوزر.

فقال: كلي ولا تراعي.

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٨ / ١٧٩ - ١٨٥.

(٢) مكان بين عدن وعمان.

(٣) هو خلق في صورة الناس مشتق منهم لضعف خلقهم. وقال في " الصحاح ": هو جنس من الخلق، يشب أحدهم على رجل واحدة وفي " المجالسة " للدينوري، عن ابن قتيبة، عن عبد الرحمن بن عبد الله، أنه قال: قال ابن إسحاق، النسناس خلق باليمن، لأحدهم عين ويد ورجل يقفز بها. وأهل اليمن يصطادونهم.

فقالوا: يا أبا محمد، فهرب وله وجه كوجه الإنسان، وشعرات بيض في ذقنه، ومثل اليد في صدره، ومثل الرجل بين وركيه، فألظ به[1] كلبان، وهو يقول:

إنكمـــا حـــين تحاريـــاني ::: ألفيتمـــاني خضـــلا عنـــاني
لـــو بي شـــباب مـــا ملكتمـــاني ::: حـــتى تموتـــا أو تفارقـــاني

قال: فأخذاه.

قال: ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناسا، فقال قائل: سبحان الله، ما أحمر دمه!

قال: يقول نسناس من شجرة: كان يأكل السماق [2]، فقالوا: نسناس، فأخذوه، وقالوا: لو سكت، ما علم به.

قال: وكان بنو أميم بن لاوذ بن سام بن نوح سكنوا زنار أرض رمل كثيرة النخل، ويسمع فيها حس الجن حتى كثروا، فعصوا، فعاقبهم الله، فأهلكهم، وبقي منهم بقايا للعرب تقع عليهم، وللرجل والمرأة منهم يد أو رجل في شق واحد، يقال لهم: النسناس.

قال الذهبي: هذا كقول بعضهم: ذهب الناس، وبقي النسناس.

يشبهون الناس، وليسوا بناس، ولعل هؤلاء تولدوا من قردة وناس - فسبحان القادر - [3].

---

(١) أي: الزموا هذا، واثبتوا عليه.

(٢) نوع من النبات، من فصيلة البطميات، ينبت في الجبال والمرتفعات، له ثمر حامض، عناقيد فيها حب صغار، وهو شديد الحمرة.

(٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢ / ٥ - ١٦.

إن كان القصد علمي لا خلقي

ذكر الفقيه أبو الفضل عبد العزيز بن علي بن عبد الرحمن الأشنهي في كتاب " الفرائض " في آخر المسائل الملقبات وهي الرابعة عشرة المعروفة بالمأمونية، وهي: أبوان وابنتان لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلفت من في المسألة، سميت مأمونية لأن المأمون أراد أن يولي رجلاً على القضاء فوصف له يحيى بن أكثم فاستحضره، فلما حضر دخل عليه، وكان دميم الخلق، فاستحقره المأمون لذلك، فعلم ذلك يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، سلني إن كان القصد علمي لا خلقي، فسأله عن هذه المسألة فقال: يا أمير المؤمنين الميت الأول رجل أم امرأة، فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة، فقلده القضاء.

وهذه المسألة إن كان الميت الأول رجلاً تصح المسألتان من أربعة وخمسين، وإن كانت امرأة لم يرث الجد في المسألة الثانية شيئاً لأنه أبو أم، فتصح المسألتان من ثمانية عشر سهماً[1].

من كلامه – رحمه الله –:

- القرآن كلام الله، فمن قال: مخلوق يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه.

- سياسة القضاء اشد من القضاء وقال ان من اهانة العلم ان تجاري فيه كل من جاراك

- لا يفلتنكم جمال النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح

(١) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، ٦ / ١٤٧ - ١٦٥.

الكريمة مدرجة الشرف [1].

- من لم يرج إلا ما هو مستوجب كان قمنا أن يدرك حاجته.

- من عرف ثمار الأعمال فهو جدير ألا يغرس إلا طيباً.

- من صحب الحكماء ظفر بحسن الثناء. من اغتر بالعدو الأريب خان نفسه. - من عدم ماله أنكره أهله ومعارفه.

- من جانب هواه صح رأيه.

- من عاقب بريئاً فنفسه عاقب.

- من عرضت له بلية رحم، ومن جناها ذم.

- من لم يجلس في شبيبته حيث يهوى جلس في كبره حيث لا يهوى.

- من لم يركب المصاعب لم ينل الرغائب.

- من كان أغلب خصاله عليه الإحسان اغتفرت زلته، وأقيلت عثرته.

- من عتب على الدهر طالت معتبته.

- من لم يأس على ما فاته تودع بدنه، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه.

- من رد الكرامة نصب شركاً وثيقاً للعداوة.

- من بخل بدينه عظم ربحه.

- من قاهر الحق قهر.

- من ترك التوقي فقد استسلم لقضاء السوء.

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٤٠٩، ٤٣٠.

- من أكدى فكأنه لم يعمل.

- من تياسر عن القصد هجم على الضلال.

- من طلب بالله أدرك.

- من لم تؤدبه المواعظ أدبته الحوادث.

- من تعود الكفاية لم يعرف مقدار الراحة.

- من أمن الزمان ضيع ثغراً مخوفاً.

- من استكفى من يتهمه خان نفسه.

- من أمن مكايد الأعداء لم يعد في العقلاء.

- من لم يعرف قدره أوشك أن يذل، ومن لم يدبر ماله أوشك أن يفتقر.

- من رق وجهه رق علمه.

- من لم يتحرز بعقله من عقله هلك من قبل عقله.

- من حرم العقل فلا خير له ولا للناس في حياته، ومن حرم الجود فلا خير له ولا للناس في سلطانه، ومن حرم الفهم فلا خير له ولا للناس في قضائه.

- من رضي عنه الجميع المختلفون استحق اسم العقل.

- من احتقر ما أعطي فهو تمام ما أعطي، ومن استكثر ما أتى إليه فقد قضى ما عليه.

- من لم يحتمل زلل صديقه عاش بلا صديق.

- من قاده الزمان إلى صداقة عدوه فليكثر تيقظه.

- من حاول صديقاً يأمن زلته، ويدوم اغتباطه به كان كضال

الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بعداً.

- من رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير.

- من جمع الحرص على الدنيا والبخل بها استمسك بعمودي اللؤم.

- من استثقل أن يقال له الحق كان العمل به عليه أثقل [1].

- السفلة الذي لا يعيبه ما صنع

- ما رأيت العقل قط إلا خادماً للجهل

- نعم لهو المرأة الغزل [2].

- من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم [3].

ومن شعره – رحمه الله –:

- قال يحيى بن أكثم في رجل من القضاة كان استخف بحقوقه ثم رجع إلى خدمته:

ذهبت بنضرة وجهك الأيام ::: ولقد مضى زمن وأنت إمام

ما كان ضرك لو ذخرت ذخيرة ::: تبقى لصاحبها يد وذمام

فاليوم إذ نزل البلا بك زرتنا ::: هيهات ما منا عليك سلام

- كتب يحيى بن أكثم إلى صديق له:

جفوت وما فيما مضى كنت تفعل ::: وأغفلت من لم تلفه عنك يغفل

---

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢ / ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١٣٤، ١٤٨، ٤ /٨٠، ٢١٤، ٢١٩.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٢٦٤.

(٣) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٨ / ١٨٢.

وعجلت قطع الوصل في ذات بيننا ::: بلا حدث أو كدت في ذاك تعجل
فاصبحت لولا أنني ذو تعطف ::: عليك بودي صابر متحمل
أرى جفوة أو قسوة من أخي ندىً ::: إلى الله فيها المشتكى والمعول
فأقسم لولا أن حقك واجب ::: علي وأني بالوفاء موكل
لكنت عزوف النفس عن كل مدبر ::: وبعض عزوف النفس عن ذاك أجمل
ولكنني أرعى الحقوق واستحي ::: وأحمل من ذي الود ما ليس يحمل
فإن مصاب المرء في أهل وده ::: بلاء عظيم عند من كان يعقل

- قال ابن أخي دعبل: أنشدني أبي قال: أنشدنا يحيى بن أكثم:

أما ترى كيف طيب ذا اليوم ::: وكيف سألت مدامع الغيم
وكيف يسري الندى بأدمعه ::: فهب نواره من النوم

لو سيم ذا اليوم لاشتراه أخ اللهو ولو كان غالي السوم

ونحن ظامون في صبيحتنا ::: قامنن علينا بشرب ذا اليوم[1]
- لا تغترر بالدهر ::: وإن كان مواتيكا
كما أضحك الدهر ::: كذاك الدهر يبكيكا[2]

* * *

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٨ / ١٨٢.
(٢) أخبار القضاة، ٢ /١٦٤.